محمد طه

عندما التقيت الشيخ عبد السلام الخشان، كنت صوفيا فى الطريقة الوفائية لكن كلامه عن الصراع الطبقى وعن خطورة الاتجار بالدين فى سوق السياسة جذبنى أنا وحمدينو السيد على إلى عضوية حدتو. وأحسست ساعتها أننى امتلكت كل الدنيا بين يداى. وقررنا أن نجعل من دكرنس قلعة حقيقية لليسار.
محمد طه «فى حواره معى»

كعادة الجميع أرسله ابوه الذى يشقى سعيا نحو لقمة خبز لإطعام الأولاد إلى كتاب الشيخ ابراهيم المرسى. الولد محمد شاطر وسريع الحفظ فختم القرآن وهو فى العاشرة من عمره وبدأ الحلم يداعب الأب بأن يصبح محمد شيخا أزهريا محترما، لكنه لم يجد المال الذى يمكنه من إرسال الولد ليدرس فى المعهد الأحمدى بطنطا. فانتقل حلم الأب إلى أن يتعلم الولد فى المدرسة الأولية ثم الابتدائية ثم وظيفة ميرى ومرتب ثابت. لكن الفقر لا يسمح لهؤلاء حتى بمجرد الحلم. فاضطر الأب إلى ارسال محمد ليعمل فى محل خردواتى بعد الظهر. وصاحب المحل كان صوفيا فهو ابن شيخ الطريقة الوفائية فى دكرنس. وتلقت أذكار الصوفيين وأحاديثهم المبهرة عن كرامات الشيخ الوفائى الكبير مع أحاديث صوفية أخرى لشيخ الكتاب الذى كان صوفيا فى الطريقة المحمودية. ومن الصوفية إلى شعبة الإخوان ليظل يناكفهم أمدا فهو يصمم على النقاش وهم يطلبون طاعة بلا نقاش. وأتم الولد مرحلة التعليم الأولى. ثم وقف الفقر عقبة فالمدرسة الابتدائية فى المنصورة والتعليم بمصروفات ولا أمل ، فترك الدراسة ليعمل مع أبيه فى دكانه الصغير الذى يبيع مستلزمات الترزى العربى.

وفى عام ١٩٤٨ كان هو وحمدينو يتساءلان عن مصير هذا الوطن. وقررا أن يفعلا شيئا. جردل وفرشاة وبوية وعلى كل جدران دكرنس كتبوا «يسقط الملك» وقامت الدنيا ولم تقعد،

وامتلأت حوارى دكرنس بمخبرين قادمين من المنصورة يبحثون عن «الشيوعيين» الذين كتبوا هذه الشعارات وكانت المرة الأولى التى يسمعان فيها عن «الشيوعية». وبعد عدة أشهر همس أحدهم فى إذن محمد.. هل أنت مع الشيخ عبد السلام الخشان؟ وسأل محمد ابن الخامسة عشرة والذى يتحدث فى كل مكان وبصوت عال ضد الملك وضد الاستعمار وضد الإخوان وضد الوفد.. سأل من هو الشيخ الخشان؟ وعرف إنه من قرية قريبة جدا «ميت الحلوج» والتقى به. وتحول محمد إلى كتلة من لهب يستمع إلى عبارات متقنة من الشيخ الطالب فى الثانوية الأزهرية ليعيدها علنا وعلى مسمع من الجميع. وإذ تلغى معاهدة ١٩٣٦ ويبدأ الكفاح المسلح فى منطقة القنال. يشكل محمد كتيبة من شباب دكرنس ويجمع تبرعات ليشترى سلاحا. لكن ما جمعه من مال لم يكف إلا لشراء مسدس واحد وبعض الذخيرة، وثار جدل بين أعضاء الكتيبة هو يصمم أن يسافر أولا لينضم إلى الفدائيين ثم يعود بسلاح يكفى الجميع. وتسابق آخرون، وأخيرا هبط حريق القاهرة على الجميع ليطفئ حماس الكفاح المسلح. فالأحكام العرفية تعلن، والفدائيون يعتقلون ويعتقل «محمد » باعتباره شيوعيا خطرا. ويخرج محمد سريعا ليكون أكثر نشاطا وأكثر صراحة فكل دكرنس تعرف الآن أنه شيوعى وتحولت دكرنس على يدى الثلاثى. الخشان - محمد طه - حمدينو إلى قلعة شيوعية فعلا، الأمر الذى أزعج الإخوان فبدأوا بالتحرش بهم، وبالفعل ترصدوهم وحاولوا الاعتداء عليهم بالجنازير لكن محمد وزملاءه استطاعوا صد العدوان ومعاقبة المعتدين بما دفع الدكتور خميس حميدة مسئول الإخوان بالدقهلية إلى الحضور لدكرنس ليعتذر لهم، وفى هذه الفترة شعر محمد إنه بحاجة إلى أن يتعلم فالتحق بمدرسة أبو صالح الليلية وحصل على الابتدائية. وفى نهاية عام ١٩٥٨ يستدعى محمد للتجنيد وكان قد حصل على الشهادة الاعدادية . وفى يناير ١٩٥٩ يشن عبد الناصر حملة عاتية على الشيوعيين ويعتقل الجندى محمد طه، وفى السجن الحربى يتعرض مع عدد آخر من الرفاق المجندين لعملية تعذيب وحشى. وصمد محمد طه صمودا أغضب ضباط السجن فزادوه تعذيبا ومن السجن الحربى إلى سجن المحاريق بالواحات ليبقى حتى ابريل ١٩٦٤. ويعود محمد طه إلى دكرنس . فى السجن كان قد أطال التفكير وقرر أن يكرس حياته للعمل وسط الفلاحين. وفى هذه المعركة تكاتف مع عبد الله الزغبى فى صراع مرير ضد الاقطاعى الذى يستند إلى كبار المسئولين الناصريين هو الشيخ الحفنى. يتذكر محمد اسلوبه القديم ويطلع نهار ليجد كل جدران دكرنس مغطاة بشعارات تهاجم الاقطاعى والناصريين

الذين يساندونه. وبتدبير من رجال الأمن شهد أحد الأشقياء بأنه رأى محمد طه، وهو يكتب شعار يسقط عبد الناصر. وقبض عليه لكن زملاءه فى دكرنس استطاعوا اثبات كذب الشاهد وافرج عنه. ويلتحق محمد بعمل فى بنك التسليف الزراعى فيزداد انغماسا فى مشكلات الفلاحين، ويواصل محمد دراسته فى ١٩٦٧ يحصل على الثانوية العامة، وفى ١٩٧٥ على بكالوريوس المعهد العالى للدراسات التعاونية، ويواصل ففى ١٩٨٣ يحصل على دبلوم الدراسات العليا فى إدارة الجمعيات التعاونية. ويصبح محمد واحدا من أشهر خبراء العمل التعاونى ومن أشهر المدافعين عن حقوق الفلاحين. ثم تكون انتخابات المجالس المحلية (١٩٧٩) ويرشح محمد نفسه ضمن قائمة كاملة لاعضاء حزب التجمع. ويعترض المدعى الاشتراكى بقرار جاء فيه «أفادت مباحث أمن الدولة بكتابها المؤرخ فى ٩-١٠-١٩٧٩ أن المذكور ماركسى متحرك وسبق اعتقاله عسكريا فى ٢٧-١-١٩٥٢، كما سبق الحكم عليه فى قضية الشيوعية رقم ١٨٩٦ لسنة ١٩٥٤. ثم اعتقل وهو مجند فى عام ١٩٥٩. وهو مازال على معتقداته ويسعى لاستغلال أى فرصة للترويج لفكره الماركسى وإثارة الجماهير وتأليبها ضد النظام ومن ثم نعترض على ترشيحه»، ويسرع محمد إلى محكمة القضاء الإدارى التى ألغت قرار المدعى الاشتراكى. وتكون بعدها سابقة خطيرة فقائمة التجمع تنجح بالكامل ويصبح التجمع المسئول المحلى عن دكرنس وعن حل مشاكلها. وكانت تجربة أكثر من رائعة، ويحكى محمد طه فى حواره معى «كنا بالفعل ندير دكرنس، فالناس إلتفت حولنا ومنحتنا دعمها المستمر بحيث لم يستطع رئيس المدينة ولا أى من المسئولين الإداريين أن يقف عقبة أمامنا، فكل المشكلات تناقش مع الناس فى جلسات عامة وعلى المقاهى وفى مركز الشباب ، وما يستقر عليه الناس ينفذ على الفور. وشعر الناس ولأول مرة أنهم يقررون مصيرهم، وأن العدل والمساواة هما أساس كل قرار يتخذ دون محسوبية ولا وساطة ولا خوف من أى مسئول سواء فى الجهاز الإدارى أو الاتحاد الاشتراكى.. وكان درسا جميلا لنا ولابناء دكرنس، لكن النظام تلقن الدرس ولم يسمح لنا بتكرار هذه التجربة فجرى تزوير الانتخابات المحلية التالية.

وطموحات محمد طه لم تنته فهو وبعد أن حصل على أعلى درجة علمية فى المجال التعاونى قرر أن يدرس الحقوق ليدافع عن الفلاحين فى قضاياهم. ولكن:

إذا كانت النفوس كبارا

تعبت فى مرادها الاجسام

فقد توقف القلب الممتلئ حبا بالفلاحين وبالمبدأ والذى أكد المدعى الاشتراكى «أنه مازال على معتقداته» وأنه «يسعى لاستغلال أى فرصة للترويج لفكره الماركسى». توقف القلب ورحل واحد من أجمل الرفاق.